

لكن لك أن تدعي إن شئت أن الأمر غير ما أقول وأني إذن فقير، لأنَّ الحظَّ ضنَّ عليَّ بالثروة، وكما يحصل عادة أنقصها كفيل أو انتزعها عدوٌّ أو لم يتركها لي أبي أصلاً، أفبعير الإنسان بالفقر، وهو ما لا يعاب على أيِّ من البهائم، لا على النَّسرو ولا الثور ولا الأسد؟ إن أوتي الجواد من القوَّة ما يجعله ركوباً مريحاً وعداء لا يكلُّ، فلا أحد يعيب عليه نقص العلف، أفتعيب عليَّ ويحك لا انحراف فعل أو قول صدر مني بل سكناي بيتاً بسيطاً، وضالة متلكاتي، وتفشفي في مأكلي، وتواضع ملبسي، وقلة مؤني؟ بالعكس أرى هذه الأشياء، مهما بدت لك دون حدِّ الكفاف، وفيرة وفوق الحاجة، وأودَّ حمل نفسي على الاكتفاء بأقلِّ منها، وسأكون أسعد بقدر ما أقلصها، فإنَّ صحَّة النَّفس تُكتسب كصحَّة البدن: يحزُّ الضَّعف فيها حزُّ المنشان، وإنَّها لعلامة لا تخطئ على الضَّعف أن تكون بنا حاجة إلى كثير من الأشياء، وفي الحياة تماماً كما في السَّباحة الأفضل هو الأخفُّ حملاً، والشَّان مائل في زوبعة الحياة الإنسانيَّة حيث يعوم خفاف الأحمال ويغرق ثقالها، من هذه الحقيقة صرَّت أعلم جيِّداً أنَّ الآلهة متفوقون على البشر بما لا يقاس لأنهم لا يحتاجون إلى امتلاك شيء، لذا فأشبهنا بالإله من منَّا بحاجة إلى أدنى قدر من الأشياء.

22 - الردَّ على تعبيره بالخُرج والعصا

لذلك امتننتُ لما قلتَ تشتمني إنَّ ثروتني خُرج وعصا (المتسول)، ألا ليت لي نفساً عالية الهمة تجعلني لا أطلب

فوق ذلك المتاع شيئاً وأحمل بعزَّة وكرامة نفس الحلية التي أخذها كراتس* بعد تخلُّيه عن ثرواته بمحض إرادته، وكراتس هذا، إن تصدَّق قولني يا إميليانوس، سليل أسرة عريقة من صفوة أثرياء طيبة* حبَّه العدة التي أنكرت عليَّ وهب الشَّعب ثروته الواسعة الوافرة، وتخلَّى عن كلِّ خدمه واختار الوحدة، محتقراً من أجل عصا أشجاره المثمرة الكثيرة، ومستبدلاً ضياعه الغناء بخرج قميء مدحه فوق ذلك بعد اكتشاف فائدته بشعر محرِّفاً لهذا الغرض ألياتا لهوميروس يشيد فيها بجزيرة كريت، سأذكر مطلعها كيلا تفكر أنني اختلقت هذه الأخبار لغرض المرافعة:

"هناك مدينة تدعى "الخرج" وسط دخان بدكنة الخمر".

تلي ذلك أبيات أخرى رائعة لو قرأتها لحسدتني على الخرج أكثر من حسدك لي على زواجي ببوننتلة، أفتعيب على الفلاسفة الخرج والعصا، وعلى الخيالة طوق الاستحقاق وعلى المشاة الدروع وعلى حملة الألوية البيارق، وعلى القادة المنتصرين عربة النصر بجيادها البيض والرداء الموشى بالسَّعف؟ ثم إنَّ تينك الشَّارتين لا تخصَّان في الواقع الأفلاطونيين بل تميزان الكلبيين، فالخرج والعصا لديوجين وأنتستنس* كالتاج للملوك والطيلسان للقادة والبُردة للكهنة والمنسأة للعرفين، وقد راح ديوجين الكلبِّي في نقاشه الشَّهير مع الإسكندر الكبير* حول حقيقة سلطانه يفخر على الصَّولجان بعصاه، أخيراً، ما دمتُ جدهما حقيرين وحكرا على المتسولين، هذا هرقل الذي لا يُغلب، أقول: هرقل نفسه جَوَّاب الأقطار ومطهَّر الأرض من الوحوش وقاهر الأُمم، والإله أخيراً، لما كان يطوف البلدان، قبيل قبوله في

السَّماء في مصافِّ الآلهة جزاء مآثره. لم يكن يرتدي سوى جلد ولا يرتفق سوى عصا.

23 - إميليانوس نفسه محدث نعمة

فإن كنت تجد هذه الأمثلة كأفٍّ، ودعوتني في واقع الأمر لا إلى محاكمة بل إلى جرد أملاكه كيلا يفوتك منها شيء، على افتراض أن شيئاً منها فاتك، فأعترف أن أبي ترك لي ولأخي قرابة مليوني درهم* استهلك منها جزءاً غير ضئيل ترحالي المستمر ودراساتي المتواصلة وإكرامياتي المتكررة. إذ قدّمت العون لأكثر من صديق، وكافأت الكثيرين من معلّمي باذلاً كذلك من مالي لزيادة مهوور بناتهم. وما كنت لأتردد لحظة قطّ في إنفاق كلِّ ثروتي للحصول على ما هو أهمّ من المال الذي لا يُعتدّ به.

أمّا أنت يا إميليانوس وقبيلك من العلوج الأجلاف فتساوون قدر ما تملكون، كشجرة خبيثة عقيم لا تؤتي أكلاً. فقيمتها تساوي ثمن ما في جذعها من الخشب. ألا توقّف يا إميليانوس بعد كلِّ ما تقدّم عن التعريض بفقر غيرك، أنت الذي ظللت في عهد غير بعيد تحرث وحدك ببرذون قميء تحت المطر المتواصلة ثلاثة أيام حقلك بزارات* الذي ما ترك لك أبوك سواها. إذ لم يمض زمن طويل مذ دعمت وضعك ميتات ذويك المتتابعة بتركات آلت إليك بغير استحقاق أطلق عليك جزاءها لا جزاء وجهك البشع اسم خارون*.

24 - ذكر وطنه وكرم محتده

أمّا عن وطني، الذي بينت أنه يقع على تخوم نوميديّة*

وقيتولة* بناء على كتاباتي حيث صرّحتُ أنا نفسي لما ألقيتُ خطاباً بمحضر أويتوس* سامي المقام أتى نصف نوميديّ ونصف قيتوليّ، فلا أرى ما الحجل في ذلك بالنسبة لي. وما الأمر في حالتي بأقلّ ممّا هو في حالة قورش* الأعظم، فقد كان مولداً نصف ميديّ ونصف فارسيّ. والمفروض أن ننظر لا إلى منشأ الفتى بل إلى خلقه، ونعتبر لا في أيّ أرض بل وفق أيّ نهج يعتزم العيش. يحقّ للبقال وصاحب الحانة أن يمتدحا البقول والخمر بكرم المنبت: مشيدين بنبيذ طاسوس* وباكورات فلياسية* إذ لا شك أن نسغ تلك الأرض الذي يغذيها يجود كثيراً مذاقها، وكذلك خصوبة المنطقة وغازرة المطر واعتدال الرّيح ودفء الشّمس ورطوبة التّربة.

أمّا نفس الإنسان التي نزحت إلى مسكن البدن من خارجه، فأيّ شيء ممّا ذكرتُ يستطيع أن يزيد أو ينقص نزوعها إلى الفضيلة أو الرّذيلة؟ في أيّ زمان لم تنشأ في شتّى الشّعوب شتّى الطّباع، وإن بدا بعضها متّسماً بالغباء أو الذّكاء أكثر من غيره؟ لقد وُلد أناخرسيس* الحكيم بين السّكيت الأغباء، وولد بين الأثينيين الفطنين مليتيدس* المغفل. ولست أقول هذا أسفا على وطني متمنياً غيره بدلاً.

هذا وقد كتنا من رعايا صيفافس* حتّى هُزم، فانتقلنا بإنعام الشّعب الرّومانيّ إلى الملك ماسينيسا*، ثمّ تحوّلنا مؤخراً باستيطان قدامى الحاربيين بيننا إلى مستعمرة مزدهرة. في هذه المستعمرة شغل أبي خطة دُوموير* المساوية للإمارة والتي تحظى بكلّ شرف. وإني لأطمح بدوري إلى أداء دور مماثل في الدّولة، وأن

أحظى بالشرف والتقدير. فقد بدأت أشارك في المجلس البلدي* وأرجو ألا أكون دونه شأنًا. لم قدمت لك هذه المعلومات؟ لتهدأ ثائرتك بعد معرفتها يا إميليانوس. وتمنحني بالأحرى حلمك إن لم اختر عرضا وسهوا زاراتك الأتيكية* كمسقط رأسي.

25 - الكلام في السحر

ألا تستحون من توجيه هذه التهم بمثل هذا التأكيد القطعي أمام رجل بمثل هذا المقام. وعرض دعاوى مرجلة ومتنافرة معا، ومقاضاتي بأمر وضده؟ أما اتهمتموني لا أبا لكم بشئى المتناقضات: بالخرج والعصا دليلا على التزمت وبالشعر والمرأة دليلا على التطارف؟ على امتلاك عبد واحد لشئى، وعتق ثلاثة لإسرافى؟ وكذلك بالفصاحة اليونانية والمنشأ الأعجمي؟ أما تستفيقون أخيرا وتدركون أنكم تتكلمون أمام كلوديوس مكسيموس. أمام رجل جاد ومشغول بشؤون الإقليم بأسره؟ أقول: لولا تسحبون هذه التهم السخيفة؟ لولا تثبتون ما تفترون من جرائم كبيرة وشرور محظورة وممارسات منكرة؟ لم تهن دعاوكم في عرض الأدلة وتقوى في إحداث الضجيج؟

أمرا الآن إلى دعوى السحر ذاتها التي أوقدوا جذوتها وسط ضجة كبرى لإثارة الكراهية ضدّي وأذكوها أكثر بعدما خاب ترقب الجميع أمام خرافات العجائز المقدّمة ضدّي. أفرأيت يا مكسيموس نارا تشتب في الهشيم فتسري فيه بسرعة وسط الحسيس والطقطة وتعالى السنة اللهب ثم لا تلبث أن يخبو أوارها بعدما أتى على تلك المادّة الخاوية فلم يذر منها شيئا؟

هي ذي أمامك تلك الدعوى المرفوعة ضدّي التي انطلقت من مشاحنات وهولتها الأفاويل، والتي تخلو من الأدلة تماما ولن يبقى بعد حكمك أثر من فراها.

لقد ركّزها إميليانوس حول هذه النقطة دون سواها: أنني ساحر. لذا يسرّني أن أطلب من محامييه# الفطاحل ما هو السّاحر بالضبط. إن كان "مَجوس" (أي السّاحر)* في لغة الفرس ما تدعوه لغتنا "صاكردوس" (أي الكاهن)* كما أجد في عدّة كتب. ما الجرم ويحكم في أن يكون المرء كاهنا ويعرف ويحفظ ويحذق طبق التقاليد العريقة أصول الاحتفالات الدنيّة وسنن الطقوس ومناسك العبادات. إن كان السّحر (مَجية) فعلا ما يفهمه به أفلاطون لما يذكر بأية دراسات معدّة لتربية النّشء يكون الفرس الفتى لممارسة السّلطة. أذكر حرفيا كلمات هذا الرّجل الإلهي وأدعوك يا مكسيموس إلى تعرّفها معي:

"لما يبلغ الغلام سنّ الرّابعة عشر، يكلف بتربيته من يدعونهم مربّين ملكيين. وهم أربعة من خيرة الفرس هم أفضل أهل زمانهم: حكمة واستقامة وأتزاناً ومروعة على التّوالي. فيعلّمه أحدهم سحر زرادشت* ابن أهورمزدا* الذي هو علم عبادة الآلهة وكذلك أساليب الحكم."*

26 - سخافة التّصوّر العامّي للسّحر

أنتسمعون أنّ السّحر (مَجية) الذي جرّمونه هو فنّ يباركه الآلهة الخالدون يُعنى بمعرفة شعائر عبادتهم وإجلالهم. علم الرّبوبيّة الدّاعي إلى التقوى والمستمدّ شرفه من زرادشت

وأهورمزدا، إمام الهدى الرباني، الذي يدرّس ضمن أهم العلوم الخاصة بالملوك، ولا يُسمح لأي من الفرس جزافاً بأن يكون ساحراً (مجوس) أكثر مما يُسمح له بأن يكون ملكاً. في حوار آخر لأفلاطون يدور حول رجل يدعى زلكسيس من أصل طراقي* ويتقن هذا الفن كتب: "الرقى كلمات جميلة".*

إذا كان الأمر كذلك فلم لا يُسمح لي بالاطلاع على كلمات زلكسيس أو أسرار زرادشت الكهنوتية؟ لكن إن تصوّر هؤلاء الجماعة السّاحر بمفهومهم الخاصّ حسب المعنى المتداول لدى العامّة كشخص قادر بفضل اتّصاله بالآلهة ومخاطبتهم على كلّ ما يشاء بقوة أسحاره الخارقة، فإنّي لأعجب كيف لا يخشون اتهام من يقرون له بمثل تلك القدرة الفائقة، إذ لا يمكن توقيّ قوة خفية وخارقة مثلها كما نحترس من أشياء أخرى. من يجلّ على العدالة فانتلاً يأت صحبة مرافقين. ومن يتهم مسمّما ينتبه إلى ما يأكل. ومن يُفّاض سارقاً يشدّد الحراسة حول ممتلكاته. لكن بأيّ مرافقين وبأيّة إجراءات وقائية وبأيّة ترتيب حراسة يمكن لمن يحيل على القضاء ساحراً بمثل القوة التي تزعمون في دعوى جنائية عقابها الإعدام أن يتقي شرّ قوة عشواء لا مفرّ منها؟ لا شيء طبعاً، لذا لا يتنبّع هذا النوع من الإجرام من يصدّق به فعلاً.

27 - ضعف أدلتهم على تعاطيه السّحر

لكن كثيراً ما يُتّهم الفلاسفة على أساس هذا الخطأ الشّائع لدى العوام، إذ يحسبون بعضهم الباحثين عن علل واقعيّة وبسيطة لظواهر العالم المادّي زنادقة ويزعمونهم

ملاحظة، كأنكساغوراس* وليوكبوس* وديمقريط* وأبيقور وآخرين يهونون دراسة العالم الطّبيعيّ. لكنّهم يدعون بابتذال سحرّة بعضهم الآخرين الذين يبحثون بحماس عن القوة التي تسبّب الكون ويجلّون الآلهة ويعظّمونهم ظنّاً أنّهم يعرفون فعل ما يعرفون حصوله، كما كان قديماً إبيمنيدس* وأرفيوس* وفيثاغور وأستانس*. كذلك أثارت الرّيب طقوس أنباذقليس* التّطهريّة وشيطان سقراط و"خير" أفلاطون، لذا أغتبط إذ أدرج بين هؤلاء الرّجال العظام.

ثمّ إنّي ببساطة أخشى أن تكون تهمهم المقدّمة لإثبات الجرم باطلّة وخاوية، فلا تحسبّها جرائم مجرّد أنّها تهم. يقول مثلاً: "لم طلبت افتناء بعض الأسماك؟" كما لو لم يكن يُسمح للفيلسوف بأن يفعل بغاية المعرفة ما يباح للأكيل فعله من أجل بلعومه. "لم تزوّجتك امرأة حرّة بعد ثلاثة عشر عاماً من التّرمّل؟" كما لو لم يكن الأحقّ بالعجب أنّها لم تنزوّج طوال كلّ تلك الأعوام. "لم كتبت في رسالة قبل زواجها أمورا غريبة كانت تبدو لها؟" كما لو كان على أيّ منّا تبرير رأي غيرنا. "لكنّها تكبرك سنّاً ولم ترفض شابّاً". هذا في حدّ ذاته دليل على أنّه لم تكن هناك حاجة إلى السّحر لترغب امرأة في الزّواج برجل. أرملة بأعزب، سيّدة كبيرة برجل أصغر، وإليك تحرّصات من نفس النوع: "لأبوليوس في بيته شيء يعبده بخشوع" كما لو لم يكن الجرم بالأحرى ألاّ يكون للمرء ما يعبد. "وقع محضر أبوليوس غلام على الأرض". ما الغريب حقّاً في أن يتهافت بمحضري شابّ، بل حتّى كهل، سواء عاقه مرض في جسمه أو أزلفته أرض زلّة. أبهذه

الأدلة تثبتون تعاطي السحر: سقوط غلام وزواج امرأة وشراء أسماك؟

28 - عرض خطة مرافعته

كان بوسعي لا شك الاكتفاء بما قلت وختتم مرافعتي دون خطر يُذكر. ولأن قدرًا غير قليل من الماء* ما زال على ذمتي لطول لائحة الاتهام وأوصل إن أحببتهم. فلننظر إلى التهم واحدة واحدة. لن أنكر التهم في مجموعها. سواء كانت صحيحة أو باطلة. بل سأعترف بها كما لو كانت صحيحة فعلا ليفهم بوضوح هذا الحشد الغفير الآتي من كل صوب لسماع المحاكمة لا فقط أن لا شيء مما يقال عن الفلاسفة حق بل كذلك أن لا شيء مما يمكن لا شك تليفقه ضدّهم زورا لا يؤثرون- لثقتهم ببراءتهم ورغم قدرتهم على إنكاره- الدفاع عنه. سأعرض إذن بادئ ذي بدء أدلتهم وأفند أن تكون لها أية صلة بالسحر. ثم حتى لو كنت ساحرا حقا. سأبين غياب أي سبب أو مناسبة ليخبروني في أي عمل سيء. إذك سأناقشهم حول حقدهم الباطل. وحول رسالة زوجتي التي يتعسفون في قراءتها وبمزيد من العداة في تأويلها. وحول زواجي ببودنتلة مبيّنا أنني فعلت ذلك أداء لواجب لا طمعا في ربح. إذ كان زواجنا لإمليانوس هذا الجافي الحقود مصدر أفضع الهمة والتنغيص. من هنا أتى ما في الدعوى التي أواجهها من حرد وغل مسعور.

بعدما أُبين كل ذلك أمام الجميع وبأتمّ الوضوح. سأشهدك إذك يا كلوديوس مكسيموس ومعك كل الحضور على أن هذا

الغلام سيكينوس بودنس ربيبي الذي بواسطته وبرضاه يرفع عليّ عمه هذه الدعوى. والمنزَع من كفالتني مؤخرًا بعد وفاة أخيه الأكبر سنا والأفضل خلقا. والمحمّش ضدّ والدته بنحو شنيع. والذي هجر التعليم وتخلّى عن كل دراسة ولا يد لي في ذلك. سيكون انطلاقا من هذه الدعوى الأثيمة شبه عمه إمليانوس لا أخيه بنتيانوس.

29 - ضعف حجة طلبه بعض الأسماك

ها أنا الآن. كما أعلنت. سأتوجّه إلى كل أباطيل إمليانوس. مستهلاّ بما ذكر. كما لاحظتم. في البداية بوصفه أقوى أساس لتهمة السحر: أنني طلبت من بعض الصيادين بعض أنواع الأسماك. أي دليل في أقوالهم يدعو إلى الاشتباه في ممارستي السحر؟ لأنّ الصيادين بحثوا لي عن سمك؟ ربّما كان ينبغي إذن أن توكل هذه المهمة بالأحرى إلى الحاكة والنجارين. واستبدال أعمال كل صنعة بأعمال الأخرى إن شئت أن أجتب افتراءاتكم. فيستخرج لي النجار السمك ويسحج الصياد الخشب بالمقابل. أم استنتجتم أنّ طلب الأسماك مكر سيء من كوني طلبتها مقابل ثمن؟ لو أردتها لمادبة أظنني كنت إذن سأطلبها مجانًا!

لم لا تجادلونني إذن حول مؤن كثيرة أخرى. فكثيرا ما اقتنيت الخمر والخضار والفواكه والخبز مقابل ثمن؟ بهذا النحو حكم بالجوع على الترابين في الأكل! فعلا من منهم سيجرؤ على شرائه إن قرّر أن كل الأطعمة التي تمون لنا لقاء ثمن نبيعها لغرض السحر لا الأكل؟ لذا إن لم يبق شيء مريب لا في

دعوة الصيادين مقابل ثمن إلى مزاوله نشاطهم المعتاد. صيد السمك- وألاحظ بالمناسبة أنهم لم يأتوا بأي منهم للشهادة لأنهم لم يوجدوا أصلا- ولا في الثمن المدفوع لقاء بضاعة تباع وتشتري- والذي لم يحدّوا قطّ مبلغه مخافة ألا يؤبّه به إن ذكروا سعرا زهيدا أو لا يصدّق إن ذكروا سعرا باهظا- إن لم يكن هناك كما أقول ما يريب في هذه الوقائع فليجبنني إميليانوس أيّ مسوِّغ معقول حمّله على اتّهامي بالسّحر.

30 - غياب ذكر الأحياء البحريّة في وصفات السّحر التي نقرأ في بعض المصادر الأدبيّة

يقول: "تطلب سمكا". لا أنكر ذلك لكنني أسألك: أمن يطلب سمكا ساحر؟ لا أعتقد ذلك أكثر ممّا أعتقده لو طلبت أرناب أو خنازير أو دواجن. أم هل للأسماك وحدها شيء يجعله الآخرون ويعرفه السّحرة؟ إن كنت تعلم ما هو فأنت بالتأكيد ساحر. وإن كنت تجهله فلا بد أن تقرّ بأنك جرّم ما تجهل. أنتم جاهلون بكلّ المعارف. بل حتّى بكلّ الخرافات الشعبيّة. إلى درجة العجز عن تليفق هذه الافتراءات بنحو يمكن تصديقه؟ إذ كيف يؤدّي إلى إضرار لهيب الحبّ سمك بارد وبليد. أو أيّ شيء مجلوب من البحر عموما؟ إلا إن حدا بكم إلى هذه الكذبة ما يقال عن ولادة فينوس من البحر.

اسمّع يا تونيويس بودنس مدى جهلك أنت الذي قبلت السمك دليلا على ممارسة السّحر. لو قرأت ورجيليويس لعلمت يقينا أنّ عقاقير أخرى تُستحضر عادة لهذا الغرض. إذ يعدّد

ضمنها على ما أعلم العساليح الرّبيّ الأمايد والفروع الغليظة واللّبان الذّكر والخيوط الملوّنة، فضلا عن غصن يابس من الغار وطين متبيّس وشمع متخثّر. وقد أشار في كتابه الرّصين:

"تُستحضر في اللّيلة القمرء أعشاب نضرة قُطعتُ بمنجل من نحاس تقطر بحلابة السّم الأسود ويُلتمس الحبّ المنتضخ من جبين مهر وليد والمغتصّب من أمّه".*

لكنك أنت المدّعي على الأسماءك تنسب للسّحرة وسائل مختلفة تماما. لا تُستحلب من جبهة الوليد الغضّ. بل تُكشف من الأجراف المفرطحة. لا تُقتطف من الأرض بل تُستمدّ من أعماق اللّجّة. لا تُجتنى بمنجل بل تُشكّ بشصوص. أخيرا بينما يذكر كوسيلة للإيذاء السّم تذكر أنت إداما. هو يذكر الأعشاب والفسائل وأنت الأسماء والحراشف. هو يجلم المروج وأنت تنكش الأعمار. كان بوسعي أيضا تذكيرك بعقاقير ماثلة عند ثيوقريطس* وأخرى عند هوميروس وأخرى كثيرة عند أرفيوس. وأستحضر وصفات عديدة من المسرحيّات اليونانيّة. ملاهي كانت أو مآسي. ومن القصص. لو لم ألاحظ عجزك عن قراءة رسالة بودنتلّة اليونانيّة. لذا سأورد أيضا شاعرا لاتينيا بنصّ أبياته التي سيُعرّفها من قرؤوا لايويوس*:

"في كلّ مكان يُعدّون خلطات سحرية للحبّ. وتُلتمس لإعداد رقية المتحابّين هذه العقاقير: أسوق وبرائن وديدان. وجذور وأعشاب وفسائل. وطعوم عظيمة ذات ذيلين. وفتن من كلّ شاحج وصاله".*

31 - سخرية من نهم إميليانوس

كان يمكنك الادعاء أنني بحثت عن هذه العقاقير وأخرى شبيهة بدلا من الأسماك بمصداقية أكبر- فرمما صدقت هذه الوصفات لشهرتها- لو كان لك حد أدنى من الثقافة: إذ لا شيء تصلح سمكة اصطيدت سوى طبخها وجبة للأكلين؟ هذا ولا يبدو لي قط أن في السمك ما يصلح للسحر. سأقول من أين أحس هذا. عدّ الكثيرون فيثاغور من أتباع زرادشت وبارعا في السحر مثله. لكن ذكرت الروايات أنه لاحظ يوما صيادين يسحبون شبكتهم قرب ميتابنتوم* على ساحل إيطالية الذي اتخذه مقاما وجعله قطعة من أرض اليونان. فابتاع منهم صيدهم شراء غرر وبعد تسليمهم الثمن أمر فوراً بتخليص تلك الأسماك من الشبكة حيث كانت عالقة تتخبط وتتلوى وإعادتها إلى قاع البحر. فبين أنه ما كان ليطلقها من يديه لو كان يجد فيها حقا ما يفيد في أعمال السحر. بينما ذكر رجل علامة بنافس بسعة علمه القديما أن هوميروس الشاعر الخبير بشتى الأمور نسب عند حديثه عن ساحرة كل الأدوية إلى البر لا البحر قائلا:

"كانت عليمة بكل الأدوية التي تضمها الأرض الواسعة".*

كتب مثل ذلك أيضا في موضع آخر من أشعاره:

"خمل لها الأرض المعطاء عقاقير كثيرة، بعضها عظيم النفع إن خلط لكن بعضها ضار".

مع ذلك لم يرد لديه قط أن أحدا أعد دواء بشيء مستمد من البحر وسمكه، فما فرك به بروتيوس* وجهه ولا أوديسيوس*

حفرته ولا إيولوس* قرينه ولا هيلينة* باطبتها ولا كرخة* قدحها ولا فينوس زنارها. لكنكم وحدكم بين الرواة نقلتم قوة الأعشاب والجذور والأغصان والأحجار من شثم الجبال إلى البحر وكنتموها في أحشاء الأسماك. قالين نظام الطبيعة. لذا حسب رأيكم كما جرت العادة باستحضار مركوريوس* ملهم الأشعار وفينوس غاوية الأفئدة ولونة* جينة الليالي وتريفية* ملكة الظلال سينتقل بعد اليوم نبتون* مع صلافيقة* وبرتونوس* وفرقة النيريات* الشاديات من فوران اللجة إلى فوران الحب.

32 - حتى لو كان السمك يصلح للسحر لا تدل حيازته

على ممارسة السحر

قلت لماذا لا أرى علاقة بين السحر والسمك. والآن إن شئتم لنصدق إميليانوس في زعمه أن السمك أيضا يساعد قوى السحر. فهل كل من يطلب سمكا ساحر أيضا بناء على ذلك؟ وفق طريقة التفكير هذه سيكون كذلك من يطلب سفينة خفيفة قرصانا ومن يلتمس قضيبا كاسر أبواب ومن يشترى خنجرا قاتلا.

في الواقع لا يمكن القول إن شيئا ما خال من المضرة إلى حد أنه لا يمكن أن يؤذي من أي وجه، ولا مفرح إلى الحد الذي لا يمكن معه تصور أنه قد يجلب الحزن. لكن هذا لا يجر إلى إسائة الظن بكل شيء، فإن حسبت اللبان والقرفة والمر والصبر وغيرها من العطريات تشتري فقط حنوطا للموتى، فاعلم أنها تستخدم أيضا لاستحضار دواء أو تنبيل قربان. ثم إنك قد تفكر أيضا، بناء

على نفس النظرة إلى الأسماك، أنّ أصحاب مينلاس* كانوا هم أيضا سحررة. إذ يخبرنا الشاعر الفذّ أنهم قبالة جزيرة فاروس* دفعوا غائلة الجوع باستخدام شصوص معقوفة. وقد تقول نفس الشيء أيضا عن التّوارس والدّلافين وعناصل البحر. وكذلك عن التّاس الأكيلين الذين يشترّون سمكا كثيرا من الصّيادين. وعن الصّيادين أنفسهم الذين يصطادون بمهارة أسماكاً من كلّ الأنواع.

"لم تطلبها إذن؟" قطعاً لا أريد ولا أرى لزاماً أن أجيبك. بل أثبتت أنت بالأحرى إن استطعت أنّي اشتريتها للغرض الذي تدّعي. كما أنّي إن اشتريت الخريق أو الشّوكران أو عصارة الخشخاش وغير ذلك من العقاقير التي في استخدامها بنحو معقول صحّة وفي خلطها والإسراف فيها مضرة. فمن سيقبل باقتناع أن تخاكني عليها بتهمة استحضار السّموم لمجرد إمكانيّة استخدامها لقتل إنسان؟

33 - نوع الأسماك المشتبه فيها

لكن لنرما تكون ترى أنواع الأسماك التي كانت هناك حاجة ماسّة بتلك الدّرجة إلى اقتنائها، والتي يندر إلى ذلك الحدّ العثور عليها حتّى تستحقّ أن تُدفع في طلبها مكافأة عالية. ذكروا ثلاثة. مخطئين في واحد منها ومفترين في اثنين. مخطئين لقولهم إنّه أرنب البحر. وها قد حمّله من تلقاء نفسه لتعابنه عبدينا تمسكون غير الجاهل بالطّب كما سمعت منه هو نفسه. والواقع أنّه لم يجد بعد أرنب البحر المزعوم. لكن أعترف بأنّي

أبحث أيضا عن أنواع أخرى. لا من الصّيادين فقط. بل كذلك من أصحابي الذين كلّفتهم بهذه المهمّة: إن عثر أحدهم على سمك من نوع غير معروف جيّداً. أن يصفوا لي شكله أو أن يحملوه لي لأراه حيّاً. وإن تعذّر ذلك فميتاً. أمّا لأني سبب أفعل ذلك. فسأخبركم في الإتيان. كذلك كذب متهمي الأذكيا. كما يظنّون أنفسهم. لما ادّعوا للتّشهير بي أنّي طلبت سمكتين خملان اسمين فاحشين راق لتتونيوس أن يفهم أنّهما عضوا تناسل الجنسين. لكنّه - أكرّم به محامياً مفوّهاً - عجز عن نطقهما بسبب عيّه. وبعد تعنية مريرة وتأتأة طويلة. سمى الذّكر بعبارة ملتوية وبنحو سيّء وبذيء. لكنّه لم يجد من سبيل لتسمية العضو الأنثويّ بنحو لائق. فلجأ إلى كتاباتي وقرأ في أحد مؤلّفاتي:

"غطت عانتها مقدّمة فخذها ومستغشية كفّها".

34 - سخريّة من استنتاجات متهميه المتسرّعة

هذا أيضا لم يتورّع من تحويله إلى عيب يعيّرني به. لأنّي لا أستحي من ذكر أشياء مخجلة في حدود اللّياقة. لكنني أحقّ بمؤاخذته. فهو مع تباهيه أمام النّاس بإجلال ورعاية الفصاحة يرفث بنحو سمح بذيء بما قيل بنحو لائق مستساغ وكثيراً ما يتلعثم في نطق ألفاظ لا تتضمّن أقلّ صعوبة أو ينحبس لسانه كليّاً.

قل لي لا أبا لك. لو لم أكتب شيئاً عن تمثال فينوس ولم أسمّ العانة. فبأية ألفاظ كنت ستتّهمني بذلك الجرم الموافق بالأحرى

لحماقتك كما للفتك؟ وهل ثمة أسخف من افتراض تشابه بين خصائص المسّميات انطلاقاً من تشابه أسمائها؟ أم ترى كنت تتصوّر أنّك وجدت بذكاء كيف تدّعي عليّ زورا أنّي طلبتُ بغرض استحضار رقيّ تينك السّمكتين الفحل والعذراء. فتعلّم إذن الأسماء اللّاتينيّة الصّحيحة للأشياء التي سمّيتها لذلك السّبب بنحو مختلف حتّى ترفع دعواك من جديد وأنت تفقه ما تقول.

لكن تذكرُ سخف ادّعاءك أنّي طلبت لغرض فاحش أسماكاً لها أسماء ذات إيحاءات فاحشة، فذلك كالقول بأنّ الناس يطلبون السمكة المدعّوة أبا مشط لمشط شعرهم، أو صقر البحر لصيد الطيور، أو خنزير البحر لصيد الخنازير، أو أبا جمجمة لاستحضار الموتى. أردّ إذن على هذه التّهمة من لاثحتك بحمق يوازي سخف فريتك بأنّي لم أقتن هذه التّفاهات البحريّة والسّفاسف السّاحليّة لا بثمن ولا مجاناً.

35 - سخافة استنتاج تقارب المسّميات من تقارب

الأسماء

وأردّ فضلاً عن ذلك بأنكم جهلون ما تدّعون افتراء أنّي طلبته، إذ توجد من التّفاهات التي ذكرتم في كلّ السّواحل أعداد كبيرة وجمّعات متراصة وأكوام مكّدسة، وبدون أن نبذل أدنى مجهود لاقتنائها، تلقي لنا بها الأمواج المنسابة برفق على الشّاطئ، لِم لا تقول إذن إنّني طلبت من عدّة صيّادين مقابل ثمن صدّفة من لُقى الشّاطئ لها قشرة محزوزة وحصاة ملساء ناعمة

وكذلك كمّاشتا سرطان وقشرة توتياء مجوّفة وأذرع حبار، وفوق ذلك صفائح وزبانيان وأشُرطة وقشور محار مرّقطة، وأخيراً حزاز وطحلب وغير ذلك ممّا يقذفه البحر وتذروه الرّياح السّاحليّة وتقذفه الأمواج وتدوّمه العواصف ويتركه الطّقس الصّحو مكانه. بالإمكان إثارة شبيهات ماثلة بتطويع التّقارب اللفظيّ في كلّ ما ذكرت من الأشياء.

تقولون إنّ بالإمكان اقتناء مستحضرات رقيّ وعزائم من نفس الشّاطئ للأغراض الغراميّة على أساس تشابه الأسماء. فلم لا يمكن الرّبط بنحو مائل بين الحصى الملتقطة من الشّيطان وحصى الكلى، أو بين الأصداف والوصايا أو السرطان وفروح الباطنيّة وبين الطّحالب والحمى*؟ أمّا أنت يا كلوديوس مكسيموس فإنّك لعمري رجل حفيّ حليم، إذ خملت طويلاً مهاتراتهم وحقّ هرقل، ولقد كنت من جهتي، ممّا راحوا يقدمونها كحجج جدّية دامغة، أضحك من حماقتهم وأعجب من طول أناتك.

36 - اهتمامات أبوليوس العلميّة

أمّا لماذا صرّت أعرف كثيراً من الأسماك، وأبى الاستمرار في جهلها، فليخبرنا إلميانوس بحكم اهتمامه الشّديد بشؤوني، فمع أنّه بلغ منحدر العمر وأقول المشيب حتّى يحصّل علماً جاء متأخراً وبعد فوات الأوان، ليقراً آثار الفلاسفة الأقدمين ليعلم أخيراً أنّي لسّنتُ أوّل من خاض في هذه الأمور، بل سبقني إلى بحثها منذ أمد طويل أرسطوطاليس* وتيوفرسطوس* وإيوديموس* وليقون* وآخرون من أتباع أفلاطون خلّفوا كتباً

عديدة حول تناسل الحيوانات وتغذيتها ووظائف أعضائها وكل خصائصها المميّزة.

وإنه لمن حسن الاتفاق أن تُرفع هذه القضية إليك يا مكسيموس الذي لا أشكّ، لعلمي بسعة اطلاعك، في أنك قرأت مؤلفات أرسطوطاليس حول "تكوين الحيوان" و"تشريح الحيوان" وحول "أخبار الحيوان" وهي تتكوّن من مجلّدات عديدة. هذا فضلا عن عديد "المسائل" له ولأتباعه، عولجت فيها قضايا من نفس النوع. فإذا كان شرفا لهم ومفخرة أن كتبوا في تلك القضايا بمثل ذلك الاهتمام وذلك الاستقصاء، لم يعيبي أن أباريهم، لاسيما إن سعيتُ جاهدا إلى الكتابة بمزيد من التماسك والاختصار حول نفس المسائل باليونانية واللاتينية، مع إضافة ما أغفل أو زيادة ما أسقط* في كل منها؟

اسمحوا إن طاب لكم الاستماع بأن تُقرأ عليكم نبذ من كتاباتي تلك حول شؤون السحر كما يزعمون، ليعلم إلميانوس أنني أجتهد أكثر ممّا يتصوّر في البحث والتنقيب، خذ واحدا من كتبي الموجودة صدفة هنا حيث حملها بعض أصحابي وأنصاري حول مسائل في الطبيعيات لاسيما ذلك الذي أتناول فيه عدّة مسائل حول نوع الأسماك، بينما يبحث هذا الرّجل عن الفصول المعنية ساقدم مثلا ذا صلة بالموضوع. (...)

37 - مثل سوفوكليس الذي اتهمه ابنه بالسفاهة

عاش الشّاعر سوفوكليس* منافس يوربيدس* والمتفوّق عليه إلى طور متأخّر من الشّيخوخة. يروى أنّه لما اتهمه ابنه

أمام قضاة بالجنون - كما لو أنّ تقدّمه في السنّ أفقده الصّواب - قدّم مسرحيته الشهيرة "كولونيوس"*، التي اتّفق أنّه كان إذّاك بصدد كتابتها. فقرأها أمام القضاة، دون أن يزيد شيئا دفاعا عن نفسه، سوى دعوتهم إلى الحكم بحزم بجنونه إن لم تعجبهم أشعار شيخ مثله. ألاحظ هنا أنّ القضاة قاموا إجلالا للشّاعر العظيم ووقوه التّبجيل والتّناء على براعة حجّته وبلاغة مسرحيته وكادوا يحكمون جميعا بجنون المدّعي بدلا منه. أوجدت الكتاب؟ شكرا. أنسحبُ إذن ولنجرّبُ إن أمكن أن يفيدني أدبي أنا أيضا في الحكمة. اقرأ لنا قليلا من البداية ثم شيئا عن السمك. وأنت أوقف الماء أثناء قراءته. (...)

38 - تصنيف الأسماك

لا شكّ يا مكسيموس أنّك قرأت عند الفلاسفة القدماء جُلّ ما سمعت. تذكرُ فقط أنني صنّفتُ هذه الكتب حول الأسماك وحدها: أيّ منها يتناسل بالجماع وأيّ يتكوّن من طين القاع. كم مرّة في السنّة وفي أيّة مواسم تلقي الإناث أنفسها للّفاح وتعتليها الذّكران، بأيّة أعضاء ولأيّة أسباب ميّزت الطّبيعة ولودها وسرّوها viviparous et oviparos - هكذا أدعو باللاتينية المصطلحين اليونانيّين zootoka و ovotoka. لكن يجب ألاّ أستمّر طويلا في عرض مفصّل لنشوء الحيوانات وغذائها وأعضائها وتعميرها وتفصيل كثيرة أخرى يلزم أن يعلمها العارف، لكن لا محلّ لها في محكمة.

سأوعز الآن بقراءة شذرات من كتاباتي اللاتينية المتصلة

بنفس العلم، وستلاحظ فيها من جهة أشياء جديدة بالذِّكر وغير معروفة إلا لقلّة من أهل الاختصاص، ومن جهة أخرى كذلك أسماء غير مستعملة عند الرومان ولا تزال على حدّ علمي غير متداولة إلى يومنا هذا. ومع ذلك ولدت تلك الأسماء بفضل بحثي الجادّ واجتهادي نقلًا من اليونانية لتُسبِّك سَكَّةً لاتينية. فليخبرنا أعوانك يا إميلانوس أين قرؤوا تلك الكلمات مصوغة باللاتينية. سأحدّث فقط عن الأحياء البحريّة دون سواها من الحيوانات، إلاّ عند الحديث عن خصائصها المميّزة، فأصغ إلى ما سأقول، ولن تلبث أن تهتف بي أنّي أستعرض أسماء سحرية مستمّدة من الطّقوس المصريّة والبابليّة، سلاشيا، ملاقيا، ملقستراكا، خندركننا، أستركودرما، كزخرودنتا، أمفيبيا، لبيدوتا، فليدوتا، درموبترا، ستيقانوبودا، مونيري، سوناقلستيكا*.

يمكنني الاستمرار، لكن لا أريد إضاعة النّهار في هذا الموضوع، كي يتوفّر لي وقت لأمرّ إلى سواه، في الأثناء، اتل علينا باللاتينية أسماء هذه العيّنة البسيطة من الأسماك التي ذكرت. (...)

39 - استشهداء بشعراء لاتين

فهل ترى ترى عيبا على فيلسوف غير جافي الطّباع ضحل الثّقافة على طريقة الكلبين الفجّة، بل يذكر انتماءه إلى المدرسة الأفلاطونية، أن يعلم هذه الأمور أم أن يجهلها، أن يهملها أم أن يهتّم بها، أن يعرف كم يتجلّى فيها من تدبير إلهيّ أم أن يصدّق أساطير أبيه وأمه عن الآلهة الخالدين؟

كتب إنيوس* قصيدة عن "الذيذ المأكّل" يعدّد فيها أنواعا

لا حصر لها من الأسماك لا شك أنّ له بها معرفة دقيقة، أذكر بضعة أبيات منها سأتلوها:

"شلق قلبية* يفضل كلّ ما سواه، وكذلك لَطّ إنيوس* ومحار أبيدوس* الوفير ذو الأصداف الصّلبة، وأبو شوكة في متليّة* وخاردروس* والتّخس في أميراقيّة*. واعلم أنّ بتارنتوم* أجود خنازير البحر، سرقوس# برندسيوم* هو الأطيب. خذ منه إن وجدته كبير الحجم، تدبّر أمرك لشراء تخس سترنتوم* وسمك كومية* الأزرق، لكن لم كدت أغفل أبا مصقار بحق فكريوبتر* العليّ (الذي لا يطاله التّسيان)- ملّ إلى بلاد نسطور* فهناك تشتريه طيبًا كبيرًا- والبوريّ والكيدم والغبر والشّفش ومديخ كركورة* وأبا جمجمة المكتنز لهما وشحما، والحّمير والإسقمريّ والتّرس والتّوتياء اللّذيذة."

وأشناد بأسماء أخرى في كثير من أشعاره، ذاكرا مصدر كلّ منها، وما إذا كان أطيّب مذاقا مشوّيًا أو مطبوخا. مع ذلك لم يؤأخذ النّقاد فلا مبرر إذن لأن يؤأخذوني على كتابة أشياء معروفة لقلّة من النّاس باليونانية واللاتينية بمفردات مناسبة ومهدّبة.

40 - جلب السمك لأغراض صيدلانية

تكلّمت في هذا الباب بما يكفي فهناك سواه، ما الغلط ويحكم في أن أستمدّ من الأسماك بعض الأدوية* وما أنا بالغفل الجاهل بالطّب والصّيدلة؟ فكما يوجد الكثير منها مبنوتًا ومفترقا في كلّ الأشياء الأخرى، عطاءً من الطّبيعة واحدا

في جميعها. كذلك يوجد بعضها حتما في الأسماك. أفترى أنّ معرفة الأدوية والبحث عنها وظيفه السّاحر أكثر ممّا هي مهمّة الطّبيب. أو لم لا. الفيلسوف الذي يريد استخدامها لا للترّيح بل لمساعدة النّاس؟ كان الأطبّاء القدامى يعلمون هم أيضا أنّ الرّقية دواء للجراح. كما يخبرنا هوميروس أوثق مرجع عن الأزمنة القديمة. إذ جعل الدّم النّازف من جرح أوديسيوس يتوقّف برفقة سحرية*. وما بجرم لعمرى ما يُفعل لجلب الصّحة.

يقول: "لكن لأية غاية سوى الأذى شرّحت السمك الذي جلبه لك خادمك تيمسون؟" كما لو لم أذكر قبل برهة أنّي أكتب عن أعضاء كلّ الحيوانات ووسطها المعيشي وعددها ومنشئها. وأبحث بتمعّن في كتاب أرسطوطاليس في التّشريح وأضيف إليه. لذلك أعجّب كثيرا أن تعلم أنّي فحصت سمكة لا يُعتدّ بها والحال أنّي فحصت مثلها أسماكا كثيرة جلبت من كلّ مكان. خاصّة وأنا لا أفعل شيئا من ذلك خفية. بل أزاول كلّ أعمالى علانية. بحيث يستطيع حتّى الغريب مشاهدتها. وذلك وفق عادة وطريقة معلّميّ الذين يقولون إنّ على الإنسان الحرّ الكريم أن يحمل حيثما ذهب سريرته مرتسمة بارزة على محيّاها. لذا أريت كثيرا ممّن كانوا حاضرين تلك السمكة التي تدعونها "أرنب البحر". هذا ولا أتبيّن بعد بوضوح ما تدعون بهذا الاسم. ولا بدّ لي من مواصلة البحث بمزيد من التّدقيق. إذ لا أجد في ما كتب الفلاسفة القدامى توصيف هذه السمكة. مع أنّها أندر من كلّ الأسماك الأخرى ومفروض وحقّ هرقل أن يرد ذكرها في كتبهم. وهي على حدّ علمي فريدة حقّا في مواصفاتها. فهي

من جهة خالية من الحسك. ومن جهة أخرى يوجد في بطنها. اثنا عشر عظاما متّصلة ومتسلسلة تشبه أظلاف الخنازير. وهو أمر ما كان ليفوت أرسطوطاليس ذكره في كتبه لو علمه. هو الذي ذكر أنّ قلب حمار البحر وحده بين جميع الأسماك يوجد وسط بطنه لضخامته.

41 - تشريح السمك

يقول: "شرّحت سمكة". من يعدّ جرما عند الفيلسوف ما لم يعدّه أحد جرما عند الجّزار أو الطّبّاخ؟ "شرّحت سمكة". أنكروني عليّ ذلك لقسوته؟ لو شققت بطنها وهي مطبوخة أو استللت كبدها- كما يتعلّم في بيتك ذلك الغلام سيكينوس بودنس عند تناول طعامه- لما اعتبرت ذلك فعلا يعرّض صاحبه للأنّهام. وإنّ أكل السمكة لجرم لدى الفيلسوف أكبر من فحصها*. أفيسمح للعرّافين بتفتيش أحشاء الحيوان*. ولا يُسمح بتأمّلها للفيلسوف. الذي يعدّ نفسه عرّاف كلّ الحيوانات. وكاهن كلّ الآلهة؟ أتعيب عليّ إعجابنا أنا ومكسيموس بأرسطوطاليس* الذي لا يحقّ لك اتّهامي ما لم تسحب كتبه من كلّ المكتبات وتنتزعها من أيدي الدّارسين؟ لكنّي أطلت حول هذه النّقطة أكثر ممّا ينبغي.

والآن انظر. زيادة عمّا سبق. كم يفنّدون مزاعمهم بأنفسهم. يقولون إنّني كنت أحاول استمالة زوجتي بالأخذات والعقاقير السّحرية المستمّدة من البحر في الوقت الذي كنت أثناءه- وهو ما لن ينكروه- في جبال وسط قيتولية حيث توجد

أسماك بفضل طوفان ديوكليون*. وهو أمر يسرني جهلهم بأني قرأته في كتاب تيوفرسطوس عن "الحيوانات القارصة واللاذغة" وكتاب نيكندروس* عن "الترياق"، وإلا لآتهموني بالتسميم. لكنني هدتني إلى هذا الشغل قراءة أرسطوطاليس واجتهادي لبلوغ شأوه وإلى حد كبير نصيحة معلّمي أفلاطون القائل إن الباحث في تلك الأمور "يمارس كالغلام رياضة لن يندم عليها العمر كله".*

42 - تهمة سحر الغلام

أما وقد انكشفت أسماكهم بنحو كاف، فهناك فريّة تماثلها حماقة لكنهم اختلقوها بمكر أكبر، عرفوا هم أيضا أنّ حجة الأسماك ستبتين سخافتها ولاجدواها، فضلا عن غرابتها المضحكة - فعلا: من سمع بأن السمك تزال حراشفه وأحساكه لإعداد رقى بقصد الإيذاء؟- ويتعّين اختلاق فريّة أخرى من الأمور الشائعة التي يصدّقها العامّة بالأحرى. لذا زعموا، في وفاق مع الأفكار الشائعة المتناقلة بدون تثبت، أنني عزّمت في مكان خفي بعيدا عن أيّ شهود على غلام كان يقف أمام مذبح ومصباح وبضعة شهود عيان، فلمّا ذكرته في تلك التّعاويد تهافت غائبا عن الوعي ثمّ تمّ إيقافه. بطبيعة الحال لم يجرؤوا على مواصلة الخرافة: فلتكتمل كان يجب أن يضيفوا أنّ ذلك الغلام هذى بتنبؤات عديدة وهو في حالة الخطف التّبويّ.

نقبل بالتّحقيق فائدة العزائم المذكورة أعني التنبؤ والعرافة، لا استنادا إلى ما يتناقل العامّة من شائعات فقط بل تؤدّد ذلك

أيضا أقوال العلماء الثّقاة، أذكر أنني قرأت عند الفيلسوف وآرون* وهو رجل موثوق بعلمه واسع الاطلاع- بين أنباء أخرى خيرا عن صبيّ في تراليس* كان ينظر إلى صورة مركوريوس في الماء* ويجيب على أسئلة النّاس المتجمّعين لاستشارته حول الحرب ضدّ متريداتس*. منشدا في مائة وستين بيتا من الشّعرا الأحداث الآتية، وأنّ فابوس* يوم أضع خمسمائة دينارا أتى يستشير نيقيدوس* فكشف له صبيان بإمر العرّاف أين دُفنت الصّرة مع جزء من المال وكيف وُزعت البقيّة، وكذلك أنّ أحد تلك الدّنانير كان بحوزة الفيلسوف مرفس كاتون الذي اعترف فعلا باستلامه من خادمه عطية لأبولون*.

43 - الغلام مصاب بمرض الصّرع وسقوطه بحضرة

محض صدفة

أقرأ لا محالة هذا وغيره عند كثير من الرّواة عن السّحرة والصّبيان. لكنني أتردّد في اتّخاذ موقف حوله أأقبل أم أنكر إمكان حدوثه وإن كنت أصدّق أفلاطون الذي يقول بوجود بعض القوى فوق الطّبيعيّة الوسيطة بين الآلهة والبشر طبيعة ومقاما هي التي تحكّم شتى ألوان الكهانة وما يأتي السّحرة من خوارق الأعمال، أرى كذلك أنّ التّفنن البشريّة- سيما نفس الصّبيّ التي احتفظت بنقاوتها- يمكن بنشوة التّرانيم أو سكر الرّوائح- تنويمها وجّرها إلى نسيان الطّروف الحاضرة وإعادتها، بإبعاد ذكرى الجسد قليلا، إلى طبيعتها الأصليّة التي هي قطعا إلهيّة وخالدة فيتسنّى لها التنبؤ بأحداث المستقبل وهي في شبه الغيبوبة.

لكن لتتحقق فعلا هذه الإمكانيات- إن كان علينا أن نمنح ثقتنا لهذه الأخبار- يُستحبّ حتماً أن يكون ذلك الغلام الأعجوبة الصادق النبوءة- على ما يقال- بهيّ الجسم سليمة ذكّي الفؤاد فصيح اللسان، ليكون أهلاً لتقييم فيه البركة الإلهية كما في معبد مهيب، هذا على افتراض حلولها في جسم الغلام، أو أن تستفيق نفسه فتستردّ بسرعة ملكة استشراف المستقبل المركبة فيها أصلاً والتي تسهل استعادتها إذ لم تعتلّ وتبدّل بالنسيان، فكما قال فيناغور ما كلّ خشب يصلح لنحت تمثال لمركوروس.

إذا كان الأمر كذلك، فسمّوا من كان ذلك الغلام المشعّ صحّة والمعافى من كلّ علّة، المتوقّد ذكاءً وامتألق وسامة، الذي نسبوا لي شرف وضعه بسحري على طريق الكشف، الحقّ أنّ تالّوس الذي ذكرتم بحاجة إلى طبيب لا إلى ساحر، فالمسكين مصاب بمرض الصرع حتّى أنّه غالباً ما يغمى عليه ثلاث أو أربع مرّات باليوم بدون أيّة عرائم، ويوهن باختلاجات الصرع كلّ أعضائه، ويتشنج وجهه ويهتزّ بعنف رأسه وقذاله، وتزيغ عيناه وينفتح منخره وتتداعى قدماه، وإنّه لأقدر السحرة طرّاً لعمرى ذلك الذي بقي تالّوس بحضرته واقفا طوال تلك المدّة، فإنّ مرضه الشبيه بالتّهويم يميل به غالباً إلى الانتكاس.

44 - غياب الغلام

لكنكم زعمتم أنّ عزمي أوقعته على الأرض لأنّه وقع صدفةً بحضري، وقد حضر كثير من رفاقه الأرقاء، هم الذين طلبتم إحصارهم كشهود، يمكنهم جميعاً أن يقولوا لماذا يشمئزون من

تالّوس، لماذا لا يجروؤ أيّ منهم على الأكل معه في نفس الصحفة والشرب في نفس القدرح، لكن لم أذهب إلى العبيد وأنتم ترون الأمر بأنفسكم: فأنكروا أنّ تالّوس قبل مجيئي بأمد طويل كثيراً ما كان يتهاوى بسبب مرضه، وعُرض على الأطباء مراراً، لينكز ذلك رفاقه في الرّق الذين هم في خدمتكم.

سأعترف بكلّ تهمكم لولا أنّه أرسل بعيداً منذ زمن إلى الرّيف في ضياع قصبة مخافة تسربّ العدوى إلى بقية الخدم، ذاك ما لا يستطيعون إنكار حصوله بالوجه الذي ذكرت، لذا تعذّر علينا إحضاره اليوم، فقد كانت هذه التهمة ككلّ الأخر قذفاً بهوتا ومباغتا، أوّل أمس فقط أخطرنا إميليانوس أن نحضر أمامك خمسة عشر خادماً، حضر منهم أربعة عشر كانوا في المدينة، تالّوس وحده تغيب كما ذكرت لأنّه أقصي على بعد مائة ميل تقريباً، لكنّا بعثنا من سيأتي به في عربة، فسأل يا مكسيموس العبيد الأربعة عشر المعروضين أمامك أين هو ذلك الغلام تالّوس، وكيف هي حالته الصحيّة، سلّ عبيد المدّعين عليّ.

لن ينكروا أنّه غلام لا أبشع ولا أدم، نخر الجسم معتلّه، متداع، جلف بليد، اخترتم حقاً غلاماً رائع البهاء إلى مثله يلجأ المرء لتقديم قربان، ويتمسّح برأسه، ويلبسه رداءً طهوراً، ويرجّي منه تبليغ أجوبة الآلهة، لبيته وحقّ هرقل حضر معنا اليوم، إذن لسلمته لك يا إميليانوس ولأمسكتّه حتّى تلقي عليه أسئلتك ولأدار إذّاك نحوك وسط الاستجواب، هنا في نفس هذا المكان وأمام هيئة الحكمة، عينين جافلتين، وأرغى غامراً وجهك برشاش لعابه، وقلّص يديه ورجرج رأسه ثمّ انهيار بين ذراعيك.

45 - حتى لو كان الغلام حاضرا لما سمح حضوره

بإثبات التهمة

هأنذا أعرض الخدم الأربعة عشر الذين طلبت، لم لا تستخدمهم لإلقاء أسئلتك؟ تطلب غلاما واحدا، مريضا بالصّرع تعلم مثلي غيابه منذ مدّة، أيّ إفك أوضح من هذا وأجلى؟ أربعة عشر خادما حضروا بطلبك أنت عنهم تتلّهي وخادم واحد تغيب فذاك تنعي غيابه، ماذا تريد في نهاية الأمر؟ تصوّر تالّوس حاضرا: أتريد إثبات وقوعه على الأرض بحضري؟ أقرّ بذلك تلقائيا. تقول إنّ ذلك وقع بعزيمة؟ الغلام يجهل ذلك، وأنا أنفي وقوعه، لن جرّو على إنكار مرض الغلام بالصّرع فلم تعزو انهياره للسّحر بدلا من مرضه؟ أما أمكن أن تنتابه أمامي عرضا نوبة كما يقع له تكرارا في ظروف مختلفة أمام العديدين؟

إن تصوّرت إذن إيقاع مريض بالصّرع عملا عظيما فلم احتجّت إلى عزيمة بينما تسمح حجارة متّقدة من السّبح، حسبما أقرأ لدى علماء الطّبيعة*. بالتّثبت جيّدا وبسهولة من هذا المرض الذي من الرّائحة يتمّ التّأكد عادة في سوق العبيد من سلامة البضاعة منه أو إصابتها به؟ كذلك يدوّخ دوران دولاب الخّزاف بسهولة شخصا بمثل حالته الصّحيّة، إذ يسبّب مشهد دورانه لنفسه السّقيمة الغثيان، وإنّ الخّزاف لأنسب حقّا من السّاحر لإسقاط مرضى الصّرع.

بلا طائل طلبت منّي إحضار الخدم، أطلب، ولا أعدم مبرّرا، أن تسمّي أيّ شهود حضروا هذا الطّقس التّكفيريّ لما دفعّت

تالّوس المتهاوي، لا تسمّي منهم جميعا غير سيكينوس بوندس ذلك الغلام الذي باسمه ترفع عليّ دعواك، يقول فعلا إنّّه كان حاضرا ولئن لم تمنع حدائته الثّقة بشهادته فإنّ وضعه كمّدع بمسّ بمصداقيّته، كان أسهل يا إميليانوس وأكثر جيّدا أن تزعم أنّك أنت كنت حاضرا وبدأت منذ ذلك الطّقس جيّ من إسناد كلّ شيء للغلمان كما لو كان لعبا: سقط غلام، رأى غلام، فهل تلا العزيمة كذلك غلام؟

46 - تخدي محامي المدعي

ما كان من تّوننيوس بوندس لما رأى هذه الكذبة تستنفذ هي الأخرى وقودها ونثير الاستهجان كما بدا من همهمة ووجوه الجميع، إلّا أن زعم بنحو لا يخلو من الفطنة والإبقاء شبّهاتهم حائمة في انتظار ما يجد أنّه سيحضر غلمانا آخرين سحرتهم بعزائمي هم أيضا، هكذا انتقل إلى نوع آخر من الحجج.

كان بوسعي جاهل هذه التّهمة، لكنّي أثيرها تلقائيا لأبيّن سخفها ككلّ تهمهم، أريد منه فعلا إحضار أولئك الغلمان الذين أسمع أنّه حصّهم على الكذب واعدوا بعقوبتهم، بيد أنّي لن أزيد عمّا قلت: ليحضروهم، أطلب وألح يا تّوننيوس بوندس أن تفي بما وعدت، هات أولئك الغلمان الذي عليهم معوّلك، هاتهم، سمّ من هم، لك أن تستخدم ماء ميقاتي لهذا الغرض، هبّا انطق، أقول لك يا تّوننيوس، لم تخرس؟ لم تتردّد؟ لم تخمّل؟ ماذا يا إميليانوس لو غاب عن محاميك ما لّقنته أو نسي الأسماء التي علّمته؟ لكن دع عنك هذا وقل ما أوعزت إلى موكلك قوله،

أرنا الغلمان! لِمَ شحبت؟ لِمَ تخرس؟ أهذا تقديم دعوى؟ أهذا مقاضاة جريمة كبرى أم ضحك على رجل يمثل مهابة كلوديوس مكسيموس. وتماد في ثلبي؟ ربّما غلط محاميك وليس عندك أيّ غلمان تقدّمهم، فاستخدم على الأقلّ العبيد الأربعة عشر الذين أحضرتهم!

47 - وجود عدد كبير من الشهود يتنافى مع سرّيّة السّحر

وإلاّ فقل لماذا طلبت إحضار كلّ هؤلاء العبيد. طلبت إذ اتهمتني بالسّحر إحضار خمسة عشر عبدا، فكيف كنت ستطلب مني لو اتهمتني بالعنف؟ يعرف إذن خمسة عشر من العبيد أمرا ويبقى سرّيّا؟ أم تراه ليس سرّيّا وهو سحريّ؟ لا بدّ أن تقبل بأحد أمرين: إمّا لم أت محظورا فليس عليّ إذّاك ما أخشى من هذا العدد من الشهود. وإمّا أتيتته فما كان ينبغي السّماح حينئذ بأن يعلمه كلّ هؤلاء الشهود.

السّحر الذي تذكرون هو، على ما أسمع، شأن موكول للقوانين، ممنوع من الزّمان في الألواح الاثنتي عشر*. لإغرائه النّاس بالأمل الكذوب في نيل فوائده عظمي، لذا فهو سرّيّ ميّال إلى التّخفي بقدر ما هو فظيع ومريع. ولطالما سهر الليالي وتسرّرت بجنح الظّلام واختلى لتجنّب الشّهود وخافت بتعاويذه، ولا يُدعى إليه قلّة من العبيد وحتّى الأحرار، وأنت تريد أن يكون خمسة عشر عبدا شهدوا ما جرى! ويحك أكان ذلك زافا أو مهرجانا أو وليمة منوّدة على فترة طويلة؟ خمسة عشر عبدا

بشاركون في طقس سحريّ. كما لو كانوا لجنة الخمسة عشر المكلفين بقيادة الشّعائر*؟

لكن لِمَ دعوت كلّ ذلك العدد وهو أكثر ممّا تقتضي السّرّيّة؟ خمسة عشر من المواطنين شعب بأتمّه، وخمسة عشر من العبيد طاقم بيت بأكمله، وخمسة عشر من المساجين مجموعة نزلاء سجن بأسرها. أفكنت بحاجة إلى تلك الكثرة منهم ليمسكوا على امتداد الطّقس ذبائح الكفّارة؟ لكنتك ما ذكرت ذبائح سوى الدّجاج*! أم ترى ليعدّوا حبوب البخور، أو ليطرحوا تالّوس أرضا؟

48 - اتّهامه بسحر امرأة

زعمتم كذلك أنّ امرأة حرّة بنفس حالة تالّوس أحضرت إلى بيتي ووعدت بشفائها وخرّت هي الأخرى مغشّيّا عليها لما سحرتها، جئتم كما أرى تتهمون مصارعا لا ساحرا! إذ زعمتم أنّ كلّ قاصديّ وقعوا، لكنّ تيمسون الطّبيب الذي جاء بتلك المرأة لأكشف عليها نفي لما سألتّه أن يكون حصل لها شيء سوى أنّي سألتها إن كانت أذناها تطنّان وأتتهما أكثر طينينا فردت بأنّ أذنها اليمنى تزعجها كثيرا وذهبت حالا.

هنا، يا مكسيموس، ومع اجتهادي لأكبّح نفسي عن تقرّيبك الآن كيلا أبدو بوجه ما كائني أتملّك، لا أودّ المرور دون الثناء على براعتك في الاستجواب: فقبل حين لما أثاروا هذه المسألة وادّعوا أنّي سحرت المرأة فنفسى الطّبيب الذي كان حاضرا أقوالهم، سألت بمنتهى الحصافة أيّة فائدة أجنبي من سحرها، فردّوا: "لتقع المرأة". سألتهم إذّاك: "وبعد؟ هل ماتت؟" فأجابوا بالنّفي. "ماذا

تقولون إذن؟ أية مصلحة لأبوليوس في وقوعها؟" هكذا سألتهم بفضيلة حقاً وإلحاح للمرة الثالثة. لعلمك بأنه يجب فحص دوافع كل الوقائع بترو. وأنه كثيراً ما يُحَقَّق في الدوافع ويُسَلَّم بالوقائع. ولهذا السبب بالذات سُمِّي الحمامون في النزاعات مدافعين* إذ يبيّنون الدوافع التي تقف خلف كل الوقائع. الحق أن إنكار واقعة أمر سهل ولا يحتاج إلى محام. لكن إثبات ما إذا كان ذلك الفعل تمّ بدافع حسن أو سيئ أمر شاقّ ومستعص. لا جدوى إذن من البحث في حقيقة حصول ما تقولون. إذ لا توجد دوافع سيئة لحصوله. هكذا يُعفى المتهم بجرمة لدى قاض كفاء من قلق التحقيق إن لم يكن له داع لفعالها.

أما وقد عجزوا عن إثبات أن تلك المرأة سُحرت أو أوقعت ولست أنكر من جهتي أنني فحصتها بطلب الطبيب. سأقول لك يا مكسيموس لماذا سألتها عن ذلك الطنين في أذنيها. لا أفعل ذلك لتبرئة نفسي في أمر قد حكمت بأن لا شبه له بالجنحة ولا الجنابة. بل كيلا أمرّ دون ذكر شيء جدير بأن تسمعه أذنك ويوافق علمك وسمتك. سأفسّر ذلك بما أستطيع من الإيجاز. فإما أنا لك مذكّر لا معلّم.

49 - أسباب الأمراض

شاد الفيلسوف أفلاطون في حوارهِ الشّهير "تيمائوس" العالم بأكمله ببلاغة رائعة. وبعدهما ميّز في النفس الإنسانية بحصافة ثلاث قوى. وعلمنا بسداد مقاصد العناية الإلهية في صنع كل أعضاءنا. صنّف كل الأمراض إلى ثلاثة أسباب. ردّ الأول إلى

أصل الجسد. إن لم تتفق خصائص أخلاطه: البرودة والرطوبة وضداهما. وهو ما يحدث كلما تجاوز أحدها حدّه أو انتقل من محلّه. يكمن سبب الأمراض التالي في فساد تلك الأخلاط المؤلّفة من عناصر بسيطة جمّعت في صنف واحد كالدم والأمعاء والعظم والتخاع وغيرها من المكونات التي هي مشيخ من تلك العناصر البسيطة. ثالثاً تشكّل بلاغم المرارة المتغيّرة والتنفّس المعتكر والخلط الثخن أقوى بواعث الأمراض.

50 - منشأ مرض الصرع

من ضمن هذه الإفرازات المادّة الرئيسيّة لمرض الصرع الذي بدأت به حديثي. لما يبدأ اللحم بتأثير حرارة ضارّة في الترهّل متفسّخاً إلى خلط ثخين راغ. ومن النفّس المتولّد من نفس المصدر بتأثير وهج الهواء المضغوط. يسيل صديد مائل إلى البياض ومنتفش. فإن نضح إلى خارج الجسم. تسرّب وكانت النتيجة تشوّها أكثر ممّا هي ضرر. فيغشى بالقوبة بشرة الصدر ويرقّشه بثتّي البثور. لكنّ من يأتيه الداء بهذا الشكل لا يصاب لاحقاً بمرض الصرع. بذلك يستبدل سقما خطيرا للنفّس بدمامة هيّنة للبدن.

لكن إن احتبس بالداخل ذلك البلغم واختلط بالمرارة السوداء فانتشر مندفعاً في كل العروق. ثمّ شقّ طريقه في احتدام إلى أعلى الرّأس. فنفذت إلى الدّماغ مادّته الفظيعة. أو هن في الحال جزء النفس الملكيّ المستمدّ من العقل قوّته. والمقيم في رأس الإنسان كما في قلعة أو سرداق. فغشي وعتمّ مسالك الألوهة

ومناهج العرفان. وهو ما يفعل بأذى أقل أثناء التَّوم لما يغطُّ باعتدال صدور الأشخاص الممتلئين بالشَّراب والطَّعام بخناق هو بُدأة الدَّاء المشؤوم. لكن إن تطوَّر إلى حدِّ الانتشار إلى رؤوس الأشخاص الصَّاحين. فإذاك يغيبون عن الوعي وقد تلبَّدت أذهانهم فجأةً ويتداعون خائري الأجسام غائبي التَّفوس. يدعو علماؤنا هذا الدَّاء المرض الأكبر والصَّرع وكذلك المرض الإلهيَّ تماما كما يدعو اليونان محقِّين "المرض المقدَّس" *بادي الرأى لآته يصيب جزء النَّفس العاقل الذي هو الأشرف والأقدس.

51 - تشخيص الصَّرع وتقييم خطورته

تعرَّف يا مكسيموس تفسير أفلاطون الذي شرَّحته بما استطعت من الوضوح باعتبار الوقت المتاح لي. وقد وجدتُ لديه فكرة أنَّ المرض الإلهيَّ ينشأ لما يطغى هذا الخلط الموبوء فيجتاح الرَّأس. لذا لم يبد لي اعتباطا أن أسأل إن كانت تلك المرأة تشكو من ثقل برأسها وخدر برقبتها ووجيب بصدغيها وطنين بأذنيها. زيادة على ذلك، كان إقرارها بأنَّ طنين أذنها اليمنى أكثر تكرِّرا علامة على تغلغل المرض عميقا في كيانها. ذلك أنَّ أعضاء الجسم اليمنى أقوى، ولذلك فهي تدع أملا أدنى في الشِّفاء إن وقعت بدورها فريسة المرض. وقد ترك لنا أرسطوطاليس مدوِّنا في "مسائله" أنَّ من باشر المرض جانبهم الأيمن يصعب شفاؤهم. وسيطول بي عرض رأي تيوفرستوس حول نفس المرض إن شئتُ عرضه، فله هو الآخر كتاب جيِّد عن مرضى الصَّرع. وبعكس معلّمه ذكر لهم دواءً في كتاب آخر له عن الحيوانات المضاغنة أثواب الأورال التي تسلخها في أوقات محدَّدة

كبقية الرّواحف المكتهلة. لكن إن لم ينتزعها المرء فورا، تستدرُّ في الحال وباستشعار ماكر أو بشاهية فطريّة تلتهمها.

ذكرتُ رأبي هذين الفيلسوفين الجليلين وسمّيتُ بدقّة كتبهما. ولم أنشأ الإشارة إلى أيّ من الأطبَّاء أو الشّعراء ليكفَّ أولئك الجهلة عن استغراب معرفة الفلاسفة بأسباب الأمراض وأدويتها بناء على مذاهبهم. وبما أنَّ المرأة المريضة أُحضرت لي لأفحصها وعلى أمل أن أعالجها. وأنَّ هذا ما كان ينبغي فعله حسب الأصول باعتراف الطَّبيب الذي أتى بها إليّ وبإثبات استدلالى. عليهم إمّا تبيين أنَّ من عادة السَّحرة والمكرّة علاج الأمراض. وإمّا الاعتراف- إن أعوزتهم الجرأة على قول ذلك- بأنَّهم قالوا بشأن الغلام والمرأة مريضى الصَّرع افتراءات باطلّة ومتهافئة * تماما.

52 - تشبيه إميليانوس بمرض الصَّرع

لذا إن أردتَ الحقَّ يا إميليانوس أنت المتهافت بالأحرى. إذ تهافتت بهذا العدد من التَّخرّصات. وليس أسوأ حقّا أن يهوى المرء بجسمه من أن يهوى بمهجته، ولا أن يتداعى برجله من أن يتداعى بذهنه، ولا أن يُنبذ في الفراش مذؤوما من أن يكون محلّ كراهية الجميع في مثل محفلنا الجليل. لكن ربّما حسبتَ نفسك سليما لأنك لم تُعزل بالبيت، والحال أنّك تتبع مرضك حينما قارك. فقارنْ إن شئتَ خبالك بخبال تالّوس جدِّ الفرق غير شاسع. سوى أنَّ تالّوس يهتاج على نفسه وأنت على الآخرين أيضا. من جهة أخرى يعوّج تالّوس عينيه بينما تعوّج أنت الحقيقة. يجمع

تألّوس يديه بينما جَمَعَ أنت أشباعك، يصطدم تالّوس بالأرصفة وأنت بالمحاكم. ختاماً، ما يفعل هو من شيء يفعلُه بتأثير المرض، فيزلّ وهو جاهل بزَلّته، بينما أنت، تعساً لك، تسيء وأنت تعقل وتعلم، حدّوك قوّة مرضك الجيّارة، تفتري الكذب وتقدّمه كحقيقة، وتؤاخذني على ما لَقِيتَ بنفسك كما لو تمّ فعلاً، وتتهم بالإساءة من تعلم يقينا براءته.

53 - أدوات السّحر الملقوفة في المنديل

هناك أيضاً- وهو ما أغفلته- أشياء تُقرّر بجهلها وتتهمني بها مع ذلك كما لو كنت تعلمها، تزعم أن كانت لي أشياء ملقوفة في محرمة في بيت بنتيانوس. أمّا الأشياء الملقوفة، ما هي وما نوعها، فنقرّ بأنك لا تعرفها، بل ولا تعرف أحداً رآها، مع ذلك تدّعي أنّها كانت أدوات للسّحر، بلا مجاملة يا إميليانوس: ما في دعواك دهاء ولا حتّى سفه، لا تظنّ شيئاً من ذلك، ماذا إذن؟ سَعُر نفس مترعة بالمرارة وخبال شيخوخة قاسية يطفحان بؤسا وشقاء، بهذه الكلمات تقريبا رفعت عليّ دعواك أمام قاض بمثل هذا الوفار والتبصّر: "كانت لأبوليوس أشياء ملقوفة في منديل في بيت بنتيانوس، وبما أنّي لا أدري ماذا كانت، أقول إذن إنّها أدوات سحر، صدّق ما أقول، لأنّي أقول ما أجهل." أئمة حجج رائعة هذه التي تنقض التّهمة نقضا صريحا، "كان الأمر كذا لأنّي أجهل ماذا كان حديداً!" وجدتك وحدك يا إميليانوس تعلم حتّى ما ليس لك به علم، تجاوزت مقدار الحماقة في الوري، فإنّ أرجح الفلاسفة عقلاً وأحدّهم بصراً يقولون إنّ علينا ألاّ نثق حتّى في ما نرى* لكن ها أنت تؤكّد بلهجة الواثق المستيقن حتّى

ما لم تر أو تسمع قطّ! لو لم يزل بنتيانوس حيّاً وسألته أئمة أشياء كانت ملفوفة في ذلك المنديل لأجاب أنّه لا يدري، ذاك المعتوق هناك الذي بحوزته مفاتيح المكان حالياً يقول إنّه لم يدقّق فيه قطّ وإن دأب على فتحه وإغلاقه كلّ يوم تقريبا بصفته حافظ خزانة الكتب هناك، وكثيراً ما دخل معي إلى هناك وبمفرده أكثر، ورأى المنديل موضوعاً على المائدة بدون أئمة طيبة ولا أئمة عقدة، لم لم يلحظ شيئاً إذن؟

كانت عقاير سحرته مخفية فيه حتماً! كنت أحتفظ به بشيء من اللامبالاة بل بحيث يمكن لأيّ فحصه والتّمعن فيه إن شاء بحريّة تامّة، بل كنت أعرضه بحيث قد يأخذه المارّ عرضاً من هناك، وأكل حراسته إلى الغير، وأعهد به إلى مشيئة الآخرين، تُرى كيف تريد أن نصدّقك الآن؟ ما كان يجهله بنتيانوس الذي عاش معي في صلة حميمة تعلمه أنت الذي ما رأيتك قطّ إلاّ أمام المحكمة؟ وما لم يره المعتوق المتواجد في ذلك المكان باستمرار رأيته أنت الذي لم تدخل أبداً إلى هناك؟ ثمّ حتّى لو كان ما لم تر مثلما تقول وحصلت يا غبيّ اليوم على ذلك المنديل فما تُخرج منه من خبء أنفٍ من جهتي أن يكون للسّحر.

54 - طريقة إميليانوس في الاتهام تفتح الباب لشتي

التجاوزات

لذا أدعك تفعل ما تشاء فاخترق وتخيّل وافتكروا ما يمكن أن يبدو سحراً: مع ذلك سأنازعك فيه، سأقول إنّه دسّ فيه، أو تلقّيته للعلاج، أو تسلّمته لبعض شعائر الدّين، أو طلب منّي في الحلم،

هناك ألف طريقة أخرى أستطيع بها فعلا تفنيذ اتهامك وفق الأصول المتبعة والعادات المتداولة، في الواقع أنت تتصور أنّ تلك الخبيثة المفترضة غير الثابتة ولا المعروفة، والتي حتّى لو ضُبطت عندي واحتُجزت لما سبّبت لي عند قاض كفاء أيّة متاعب. ستدينني بناء على مجرد شبهة واهية. لست أدري إن كنت ستقول مرّة أخرى، كعادتك: "ماذا كان إذن ذلك الشيء الهامّ الذي وضعته بيته مغشّى بسماط؟" هو كذلك إذن يا إميليانوس؟ هكذا تتهم بنحو يخوّل لك استمداد معلومات من المتهم وأنت لا تملك أيّة معلومة! "لم طلبت سمكا؟" "لم فحصت امرأة مريضة؟" "بماذا كنت تحتفظ في المنديل؟" "الأتهامي جئت أم لا استجوابي؟ إن جئت تتهمني فأثبت ما تدعي، وإن جئت تستجوبني فلا تحكّم مسبقا على ما وقع، فإنما لجهلك بما حصل احتجت إلى سؤالي. ثم إن كلّ الناس سيتحوّلون بهذه الطريقة إلى متهمين، إن لم يكن أحد بحاجة إلى البينة لإقامة الدعوى على من شاء، بل مُنح صلاحية مطلقة لاستجوابه. إذّاك سيؤخذ بلا شكّ على الجميع أيّ فعل أتوا على أنّه ربّما كان سحرا. سجّلت أمنية على فخذ تمثال: أنت ساحر إذن، وإلا فلم سجّلت؟ رفعت أدعية للآلهة في المعبد بصمت: أنت ساحر إذن، وإلا فقل ماذا طلبت؟ بالعكس، لم ترفع في المعبد أدعية: أنت ساحر إذن، وإلا فلم لم تدع الآلهة؟ والشأن كذلك إن وضعت عطية أو قدّمت قربانا أو تناولت من المذبح غصنا مقدّسا، ولا إخال يوما سيكفيني إن شئت تقصّي كلّ الأشياء التي سيطلب من يفترى على أحد بالمثل تعليلها. سيعدّ بالأخصّ كلّ ما تحفظ في بيتك

مخبوءا ومختوما ومقفلا بنفس طريقة الاستدلال من السحر وسيُحصّر من غرفة المؤن إلى القصبية ويُحال إلى المحكمة.

55 - البوح بخبايا المنديل

كم هي تلك الأشياء وما نوعها وأيّ مجال يفتح مسلك إميليانوس هذا للأراجيف، كم من العرق سينضح من الأبرياء هذا المنديل البسيط*. يمكنني طبعا مناقشته مع الكثيرين، لكنني سأفعل ما قرّرت: سأقرّ حتّى بما لست مضطّرا إلى الإقرار به، وسأجيب على أسئلة إميليانوس. تسأل يا إميليانوس بماذا كنت تحتفظ في المنديل، لكن مع أنّي أستطيع إنكار وضع منديلي في مكتبة بنتيانوس بصفة قطعّة، وحتّى لو سلّمت في الحالة القصوى بوجوده فبوسعي القول بأنّ لا شيء لفّ فيه - وهو ما لو قلته لما استطاعت تكذبي أيّة شهادة ولا حجة، إذ لم يصل إليه أحد، ورأه معتوق واحد كما تقول - أقول مع ذلك بطيب خاطر إنّه كان غاصّا بمحتوياته. فكّر إن شئت بهذا النحو، مثلما فكّر يوما رفاق أوديسسيوس بأنهم عثروا على الكنز لما بقروا القرية المحشوّة بالرياح*. أتريد أن أقول لك ما نوع تلك الأشياء التي لفتها في الحرمة وأودعتها بيت بنتيانوس؟ أنا طوع أمرك.

شاركت في عديد من طقوس المسارّة في اليونان، وأنا تحتفظ بعناية بالغة ببعض الشارات والتذكارات منها سلّمها لي الكهنة، لا أقول شيئا غير مألوف أو غير معروف، تعلمون أيّها المطلّعون ولو على أسرار الأب لبير* فحسب الموجودون بيننا ما أخفيتم في بيوتكم وجلّون وتقّدسون بصمت بمنأى عن كلّ من

يجهلونها. أنا أيضا تعلمت، كما قلت، طقوسا متعددة وشعائر متنوعة في إطار سعبي وراء الحقيقة وأداء واجبي نحو الآلهة. وما ذاك بدعا جشمته لحاجة ظرفية، بل كان دأبي وديني لحوالي ثلاث سنين*. منذ الأيام الأولى من مجيئي إلى أوية محاضرا أمام العموم حول جلال إسكولا بيوس*. وقد حملت معي تلك الأشياء، واستعرضت ما أعرف من الطقوس، والمحاضرة مشهورة يقرأها جمهور عريض وتتناقلها الأيدي، وما من فصاحتي استمدت شعبيتها بل من ذكر إسكولا بيوس الذي يجله أهالي أوية، رجاءً، ليستظهر أحد، إن وجد بينكم من يتذكرها، بداية ذلك المقطع. (...) أسمع يا مكسيموس الكثيرين يستظهرونها؟ بل ها هو شخص يقدم لي الكتاب، سأطلب أن تقرأ تلك المقاطع ما دمت تظهر من انبساط أساربرك أن الاستماع إليها لا يضايقك. (...)

56 - التشنيع على إميليانوس لاستخفافه بالآلهة

أفيمكن بعد أن يستغرب أحد، عنده ذكر من أمور الدين، احتفاظ شخص يعلم هذا الكم من الأسرار الرتيانية ببعض طرف تلك الطقوس في بيته ويلفها في محرمة من الكتان الذي هو أنقى لفافة للأشياء الرتيانية؟ فإنّ الصوف، سقطت جسد أبلد البهائم المتز منها، هو في عرف أرفيوس وفيثاغور لباس جس، بينما الكتان الطهور التابت من الأرض بين أطيب خيراتنا لا يُستخدم كسواء ولحافا من كهنة المصريين الأنقياء الأنقياء فقط، بل كذلك للاحتفاظ بالمقدسات.

أعلم لا محالة أنّ البعض، ومن أبرزهم صاحبنا إميليانوس

يستظرفون الهزء بالأمور الرتيانية، فحسب ما بلغني من بعض أهالي أوية الذين يعرفونه، لم يصل حتى هذه المرحلة من عمره لأيّ إله، ولا أمّ أيّ معبد، وإن مرّ على معبد يستنكف من لثم يده، بل لم يعط أبداً آلهة الحقول الذين يطعمونه ويكسونه بواكير غلاته وخمره وقطعانه، ولا يوجد بضيعته أيّ محراب ولا أيّ مكان أو غاب منذور للآلهة، ولم أجدت عن غاب مقدّس أو محراب، ومن وجدوا ولو يوماً واحداً في أراضيه ينفون أن يكونوا رأوا فيها نصبا بورك بدهان* أو عذقا جدل إكليلا. لذا لُقب بكنيتين: خارون، كما ذكرت، بسبب نحس وجهه ونفسه، والأخرى التي يحبّ سماعها: ميزنتيوس* بسبب استخفافه بالآلهة*.

من هنا أفهم بسهولة لماذا يبدو له استعراض هذا العدد من الأسرار الرتيانية سخافات، أو ربما لاستهتاره بعزة الآلهة لا يخطر بباله أن أكون صادقا في قلبي إني أحفظ عندي بإجلال كثيرا من شارات وتذكارات الطقوس الرتيانية، لكنني لا أعير بالا لما يفكر بشأني ميزنتيوس، أمّا بقيّة الحضور فأعلن لهم بأعلى صوتي: إن اتفق أنّ أحدا منهم شارك معي في تلكم الطقوس فليعطني إشارة منه وله أن يعلم ما أحتفظ به، فلن يجبرني أيّ خطر على البوح لغير المطلعين بما أودعت لكتمانه.

57 - تجريح شهادة كراستوس

إخالني الآن أبدو يا مكسيموس لأيّ من الناس، حتى أشدهم خاملا عليّ قد قدمت جوابا وافيا شافيا، وبخصوص المنديل محوت كلّ شبهة، ودون أن أخشى خطرا ذا بال بشأن منحي

المرافعة

الحكم. يحقّ لي الآن المرور منه إلى شهادة كراسّوس التي ذكروها بوصفها الأشدّ بأساً وإفحاما بعد الحجج السّابقة.

قُرئتُ على مسمعك من عريضة الاتّهام شهادة شخص أكرش بجباح لا يُرجى لبطنته دواء يدعى يونوس كراسّوس أنّي مارستُ في بيته طقوس سحر ليليّة مع صديقي أبيوس كونتيانوس الذي كان يؤجّر بيته للسّكنى. يقول كراسّوس إنّه، رغم وجوده في تلك الفترة في الإسكندريّة، اكتشف ذلك من دخان حطب وريش طيور. ولنا أن نتصوّره، وهو يرتاد مجالس القصف والعريضة- فكراسّوس هذا يخوت بياض نهاره بأذيال الخوانيت فرجا بدأه ذاك غارقا في أبخرة الخّمّارات الخمّة- راصدا كالفنّاص الرّيش المزجى إليه من داره*، قد تعرّف على الدّخان المتصاعد من أعلى بيته هناك في البلد البعيد. ولو راه بعينيه لكان إذن قد أوتي بصرا يفوق بالتحقيق منى ورغائب أوديسّسيوس. فبلا طائل ظلّ أوديسّسيوس سنين طوالا يرقب من السّاحل علّه يرى دخانا منبعئا من وطنه*، بينما لمح كراسّوس الدّخان بلا عناء في أشهر غيابه المعدودة جالسا في حانة من أرذل طراز. لكن لو شمّ بمنخره رائحة بيته، لكان إذّاك قد فاق في رهافة شمّه الكلاب والعقبان. إذ لأيّ كلب أو عقاب في سماء الإسكندريّة يُنفذ ريحه شيء من تخوم أوية؟ كراسّوس هذا من دون شكّ أكيل لا يضاهاى بطنه، ولا تعوزه الخبرة في كلّ الأدخنة، لكن لانصرافه إلى الشّرب- المجال الوحيد الذي يُعَدّ فيه من الخبراء- كان أسهل بالتّأكيد أن تصل إليه في الإسكندريّة ريح الخمر من أن تبلغه رائحة الدّخان.